كل هذا بسبب رمّانة؟

نواف التميمي

مثل الإعلامي اللبناني جورج قرداحي، كان الصحافي البريطاني بوريس جونسون يقول ويكتب آراء كثيرة في الشأن العام، حتى قبل أن صار وزيراً للخارجية في العام 2016، ورئيساً للوزراء في العام 2019. واشتهر جونسون بطول لسانه ومشاغباته التي طاولت زعماء دول كبيرة، من قبيل قصيدة كتبها في 2016 هجا فيها شخص الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، وفازت بألف دولار، في مسابقة مجلة «سبيكتيتور» لشعر الهجاء. ونظم جونسون قصيدته «البذيئة» رداً على مساعي أردوغان إلى مقاضاة ممثل ألماني كوميدي اتهم الرئيس التركي بإساءة معاملة الأكراد والمسيحيين. وبعد شهرين من تاريخ نشر القصيدة، تولى جونسون وزارة الخارجية، وقام بزيارة رسمية إلى تركيا، لم يثر الجانب التركي خلالها حادثة القصيدة المهينة للرئيس، فيما أعرب جونسون عن شعوره بالفخر والسعادة، لأنه يمتلك غسالة ملابس تركية الصنع تعمل جيدا. وعندما أثار الصحافيون موضوع القصيدة، أعرب جونسون عن «سروره» لعدم التطرّق إلى تلك «التفاهة» خلال محادثاته مع الجانب الرسمي التركي. وخلال عمله الصحافي كاتب مقال أسبوعي في صحيفة التلغراف، اشتهر جونسون بكتاباتٍ لاذعة، منها انتقاده تدخّل الرئيس الأميركي الأسبق، باراك أوباما، في مسألة استفتاء خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، حيث كتب، بتعبير لا يخلو من عنصرية، أن «التراث الكيني في شخصية أوباما عزز مشاعره المعادية لبريطانيا»، مضيفاً أن «الرئيس نصف الكيني يكنّ كراهيةً للإمبراطورية البريطانية». وخلال معركة الاستفتاء، هاجم جونسون قادة الاتحاد الأوروبي، وقال إن مساعيهم إلى بناء «دولة أوروبا الكبرى» لا تختلف عن مشروع زعيم النازية، أدولف هتلر الذي حاول «إنشاء دولة أوروبية موحدة». ولم تنج وزيرة خارجية الولايات المتحدة السابقة، هيلاري كلينتون، من جونسون السليط، عندما وصفها في مقالة في «التلغراف» بأنها «ممرضة سادية تعمل في مستشفى للأمراض العقلية». وحتى أنه تجرّأ على انتقاد إسرائيل، وندّد باستخدامها القوة المفرطة في أثناء حربها على غزة في العام 2014. وعندما صار رئيساً لحكومة بريطانيا، تم سؤاله عن إدانته عملية إسرائيل العسكرية ضد القطاع، أجاب: «بالنسبة لنا، نحن الذين ندعم إسرائيل بشكل دائم، نريدها أن تُظهر أكبر قدر ممكن من ضبط النفس في جميع أعمالها».

وعلى عكس ما حصل مع الإعلامي، وزير الإعلام اللبناني، جورج قرداحي، بعد بث تصريحات أدلى بها قبيل توليه منصبه، تتعلق بموقف شخصي، وليس موقفاً لبنانياً رسمياً، من الحرب الدائرة في اليمن، لم يتعرّض بوريس جونسون لأي حملات ضغطٍ أو تحريض. ولم تعترض أي من الدول أو الشخصيات التي طاولها جونسون بلسانه الطويل أو قلمه الحاد عندما عينته تيريزا ماي وزيراً للخارجية، ولم يطالب أحدٌ بإقالته. كما أن أيا من الدول لم تقطع علاقاتها مع بريطانيا عندما صار جونسون رئيساً لحكومتها. ثم إن أخذ لبنان بأكمله بجريرة مواطن واحد، بصرف النظر، صحافياً كان أو وزيراً، ومعاقبة البلد ومواطنيه بسبب رأي شخصي، يستدعي الكثير من التساؤل عن حقيقة ما يُقترف بحق لبنان. وهل تستحق كلماتٌ «غير رسمية» من إعلامي كل هذه العاصفة، أم أن ما خفي خلف الأكمة أعظم؟

تعيدنا هذه الأسئلة إلى مثل شعبي لبناني يقول «القصة مش ع الرمانة، بس القلوب مليانة». وحكاية هذا المثل تقول إن رجلاً تزوّج وسكن وزوجته مع أمه، حملت الزوجة وتوحمت على الرمان في غير موسمه. ذهب الزوج يبحث في أرجاء البلاد عن رمّانة توحّمت عليها زوجته، وعندما عثر على حبّة رمان واحدة أحضرها لها. فرحت الزوجة الحامل، وصارت تباهي أو تكيد حماتها بالرمانة، وخبّأتها في مكان خفي في المطبخ. بعد ذلك راحت الحماة تبحث عن الرمانة حتى وجدتها وأكلتها، وهنا انقضّت الزوجة على حماتها بالضرب المبرح، وهبّ الزوج والجيران لتخليص الأم من قبضة الكنّة، وتساءلت إحدى النساء: «كل هذه الطوشة على رمّانة»، فقالت الزوجة: «مش ع الرمانة لكن القلوب مليانة».

لا فرق بين حرمة الدماء اليمنية والسورية

أسامة أبو ارشيد

ثمّة جانب مسكوتٌ عنه في أزمة تصريحات وزير الإعلام اللبناني، جورج قرداحي، بشأن ما وصفه بأنه «عدوان» سعودي إماراتي على الحوثيين في اليمن، الذين قال عنهم إنهم «يدافعون عن أنفسهم أمام عدوان خارجي». المسكوت عنه هنا متعلّق بسؤال مفاده: هل ثمّة ما يميز دماء عن دماء، بحيث يكون سفك بعضها مستباحاً في حين يكون بعضها الآخر حراماً؟ داعي هذا السؤال أنه لا قرداحي، ومن ناصره في صفوف المحور الإيراني، ولا السعودية ومن لفّ لفها، تكرّموا علينا وأخبرونا بماذا يفرق الدم السوري المراق ظلماً وعدواناً عن الدم اليمني المسفوك هو أيضاً ظلماً وعدواناً؟ المسألة هنا ليست متعلقة بانقلابيين حوثيين، ولا فصائل وتنظيمات وجيوش متحاربة، بقدر ما أنها متعلقة بشعبين يتعرّضان لجرائم، في حين يزعم كل طرف بأخلاقياتٍ لا يملكها، ويحاول أن يدين الطرف الآخر.

قرداحي الذي اعتبر الحرب في اليمن «عبثية يجب أن تتوقف»، ودان القصف الذي يتعرّض له الحوثيون «ومنازلهم وقراهم وجنازاتهم وأفراحهم»، هو نفسه من سبق له أن اعتبر، عام 2018، الرئيس السوري ومجرم الحرب، بشار الأسد، «رجل العام»، معتبراً أنه «بصموده» في «الحرب الكونية»، منذ عام 2011، «أثبت أنه رجلٌ من طينة أخرى». أكثر من ذلك، زعم قرداحي، حينها، أنه لولا «صمود» الأسد لكان سقط لبنان والأردن ودول الخليج. تصريحات قرداحي هذه لم تكن منبتّة عن سياق أوسع ينافح عنه، إذ أنه ومنذ انطلاق شرارة الثورة السورية عام 2011، اعتبرها «مؤامرة خارجية»، أما الجرائم الوحشية والمجازر التي يرتكبها النظام السوري ضد أبناء شعبه فلا تعدو أن تكون «تضخيماً للأمور عمداً، وتزويراً للحقائق أحياناً».

هذا الرجل، الذي يُقدَّمُ بوصفه «إعلامياً قديراً»، لا يجد غضاضة، ولا يرفّ له جفن، وهو يكذب جهاراً نهاراً، ويسعى إلى تزوير حقائق دامغة هي حصيلة أكثر من عشر سنوات من عدوان يشنّه نظام الأسد على شعبه، مسنوداً بروسيا وإيران ومليشياتها، وفي مقدمتها حزب الله اللبناني، والذي للمفارقة، يصف قرداحي أمينه العام، حسن نصر الله، عام 2018، بأنه شخصية العام في لبنان «بلا منازع». بالنسبة لقرداحي فإن ما بين 400 ألف ومليون قتيل سوري، وملايين الجرحى والمصابين، وثلاثة عشر مليوناً لا يجدون طعاماً يسد رمقهم كل يوم، وستة ملايين مهجّر خارج بلادهم، ومثلهم نازحون داخلها، ومائة ألف معتقل حالي، ومثلهم قتلوا في أقبية تعذيب النظام، وأكثر من مائتي ألف مجهولي المصير.. كلها أراجيف «تضخم الأمور عمداً، وتزور الحقائق»! أو، لعله يرى في ذلك ثمناً مقبولاً لإفشال «المؤامرة الخارجية» على النظام، في سبيل إلحاق الهزيمة بـ«الحرب الكونية ضده».

ثالثة الأثافي، أن تجد بين بعض الفلسطينيين، أو من يَدّعونَ دعم ثورتهم، من يوافق قرداحي ويتنطّح للدفاع عنه وعن الأسد وعن حزب الله وإيران وروسيا، زاعمين أن هذا محور للمقاومة يتصدّى «للمؤامرات الإمبريالية» والصهيونية على الأرض السورية. هؤلاء، أيضاً، يسقطون في فخٍّ خطير مناطه تمييز حرمة الدم الفلسطيني عن غيره من الدماء المعصومة والأرواح البريئة، وهذا سيكون أثره كارثياً على القضية الفلسطينية ومركزيتها، عربياً وإسلامياً وإنسانياً. ولا أريد أن أتوسع هنا في حقيقة الموقف الروسي المتواطئ مع إسرائيل في تمكين هذه الأخيرة من قصف القوات الإيرانية، والمليشيات التابعة لها على الأرض السورية، وقد سكتت أبواق هؤلاء عن المعلومات التي راجت بشكل واسع خلال زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي، نفتالي بينت، روسيا، الشهر الماضي (أكتوبر/تشرين الأول)، واتفاقه مع الرئيس فلاديمير بوتين، على السماح للدولة العبرية باستمرار هجماتها تلك، بما يشمل مواقع النظام السوري العسكرية نفسها.

في المقابل، وبغضّ النظر عن حقيقة الدوافع السعودية من افتعال أزمة دبلوماسية مع لبنان، متذرّعة بتصريحات قرداحي التي كان أطلقها قبل تعيينه وزيراً في الحكومة، فإنه لا يمكن لأيٍّ كان يزعم الموضوعية والإنسانية أن يغض الطرف عمَّا تمارسه هي والإمارات من جرائم حرب في اليمن منذ عام 2015. في تقريره السنوي الصادر في ديسمبر/ كانون الأول العام الماضي، وصف صندوق الأمم المتحدة للسكان الوضع في اليمن بأنه «أسوأ كارثة إنسانية على مستوى العالم، والمأساة تتعمق أكثر فأكثر مع استمرار الصراع».

كانت كل من الرياض وأبوظبي أعلنتا مطلع عام 2015، ضمن ما يعرف بـ«التحالف العربي»، الحرب على الحوثيين، وهم أحد أدوات إيران في المنطقة، بعد احتلالهم صنعاء وإطاحة «الحكومة الشرعية». ولكن الصراع منذ ذلك الحين يراوح مكانه، إذ يقيم الرئيس اليمني «الشرعي»، عبد ربه منصور هادي، أقرب إلى الرهينة في الرياض، في حين تقوّض الإمارات حكومته وقواتها في العاصمة الجنوبية، عدن، عبر مليشيات انفصالية تدعمها. ليس هذا فحسب، بل تسعى أبوظبي إلى تعزيز سيطرتها على الموانئ اليمنية في الساحل الغربي المقابل للقرن الأفريقي، وبالتالي السيطرة على مضيق باب المندب الاستراتيجي الذي يربط بين البحر الأحمر وبحر العرب. وكان المجلس الانتقالي الجنوبي، المدعوم إماراتياً، سيطر على جزيرة سقطرى الاستراتيجية، العام الماضي، بعد مواجهاتٍ مع القوات الحكومية التي تدعمها الرياض.

> قرداحي ومن شايعه مصابون بإنسانية منعدمة، عندما يتعلق الأمر بسورية، ومن يؤيدون العدوان على الشعب اليمني لا يقلون سوءاً

بالنتيجة، السعودية تتخبّط في اليمن ولا تعرف كيف تحسم الصراع مع الحوثيين، فالقوات الحكومية التي هي في الأصل تابعة لها تواجه تمرّداً مدعوماً من الإمارات، وهي عاجزةٌ عن وقف تلك التعدّيات والانتهاكات. كما أنها لم تستطع إيجاد قوى يمنية قادرة على التصدّي للحوثيين، خصوصاً مع تنامي حساسيتها من حزب التجمع اليمني للإصلاح، بتحريض إماراتي، بسبب خلفيته الإسلامية. وهكذا، تطاولت الحرب في اليمن، وهي تدخل عامها السابع الآن، دفع خلالها الشعب اليمني المغلوب على أمره ثمناً فادحاً جرّاء تكالب إيران ووكيلها الحوثي، والسعودية والإمارات والمليشيات التابعة لهما عليه. وحسب الأمم المتحدة ومنظماتها، فقد قتل خلال السنوات الستة الماضية أكثر من 233 ألف يمني، ويحتاج أكثر من 80% من سكان اليمن الذين يبلغون ثلاثين مليوناً إلى مساعدات إنسانية عاجلة، خصوصاً في ظل الحصار الخانق الذي تفرضه السعودية على موانئ البلاد، ويموت طفل كل عشر دقائق بسبب مرضٍ يمكن الوقاية منه، وهناك مليونان منهمْ خارج المدرسة، بالإضافة إلى مليونين آخرين يعانون من سوء تغذية حاد، وأكثر من 3,6 ملايين شخص مشرّد. دع عنك الأمراض المنقرضة التي عادت لتفتك باليمنيين، كالكوليرا.

باختصار، كما أن قرداحي ومن شايعه مصابون بعمى ألوان وإنسانية منعدمة، عندما يتعلق الأمر بسورية، فإن من يؤيدون العدوان على الشعب اليمني لا يقلون سوءاً عنهم. في السياق اليمني، ليست السعودية والإمارات وحدهما المعتديتين، بل إيران أيضاً ووكيلها الحوثي، ولكن لا تتوقع من اعتذاريي إيران أن يقرّوا بذلك. أما نحن الشعوب العربية، فلا ينبغي أن نتلطّخ بجريمة التفرقة بين حرمة دماء الأبرياء، كائناً من كانوا، وكائناً من كان المجرم.

(كاتب فلسطيني في واشنطن)

كاريكاتير **عماد حجاج**

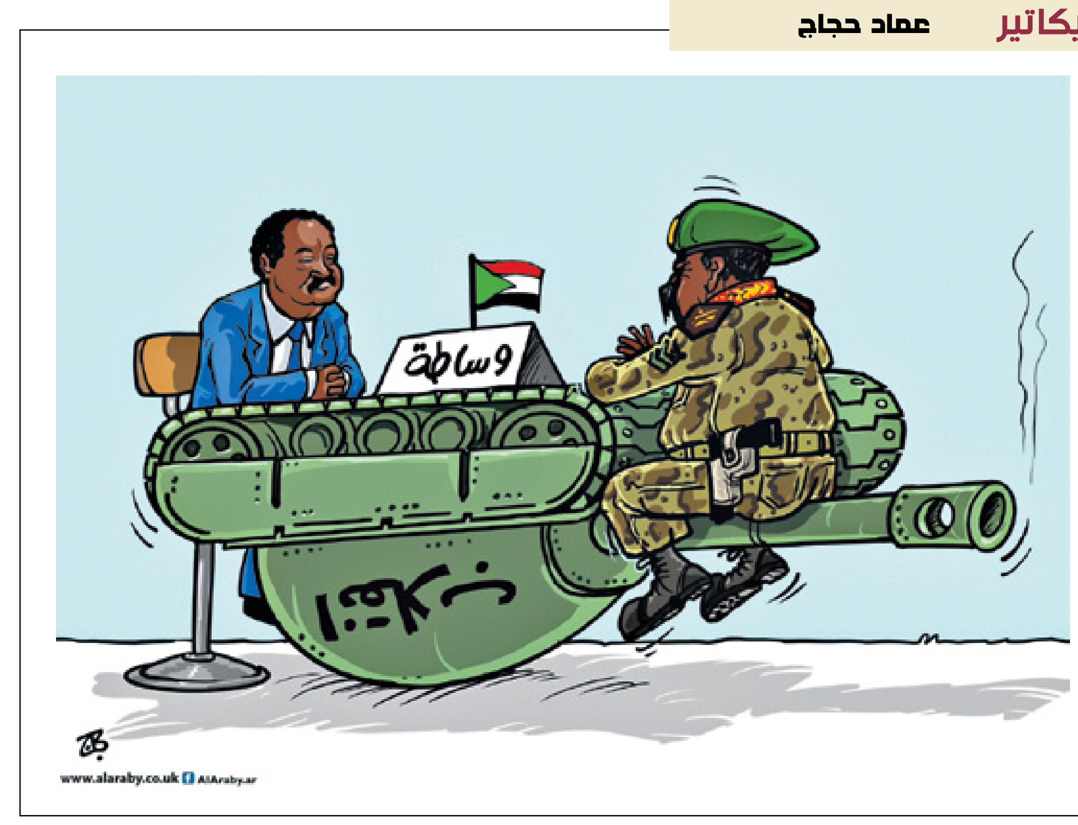

ليل السودان في سياق عربي

غازي دحمان

لم تكن ليلة 25 أكتوبر/ تشرين الأول السودانية غريبة عن السياق العربي، بل يمكن القول إن استيلاء العسكر على السلطة واعتقال السياسيين والحزبيين فيها استعادة ممجوجة لأحداثٍ رافقت مسار السياسة العربية منذ تشكّل الدولة في هذه المنطقة، وكانت، على الدوام، مؤشراً على سيادة الاستبداد ودلالة على أن زمن الديمقراطية لم يحن بعد في هذه البلاد.

على الجانب الآخر، كان عسكر الأمة وأجهزة أمنها يتخبّطون، ويسألون عن الخطأ الذي حصل في أثناء عمليات تعقيمهم هذه الأمة، وهل ثمّة تراكيبُ معملية أنتجت تفاعلاتٍ غريبة أدّت إلى هذه الانحرافات الخطيرة. وعندما تيقنوا أن جميع الخطوات كانت سليمة، باستخدام الطرائق المعتادة، والتي طالما أثبتت نجاعتها على مدار عقود، قالوا إنها مؤامرة أجنبية، وثمّة من تلاعب بالمعطيات الجينية لشعوبنا التي نحفظها عن ظهر قلب، ويستحيل أن تقوم بهذه الأفعال الغريبة وتهتف «الشعب يريد إسقاط النظام». غير أن العسكر الذين لطالما تم وصفهم في بلادنا بأصحاب التفكير الجامد والصيغ المتخشّبة استجابوا للتحدّي الذي واجههم في أكثر من بلد، فقد أظهروا درجة عالية من التماسك في مرحلة أولى، وحافظوا على بنى الجيش والأجهزة الأمنية، ثم أوحوا للثورات أنهم متعاطفون معها (باستثناء النموذجين السوري والليبي حيث الجيش يقوم على أسس طائفية وقبلية)، ثم القبول بإزاحة رأس السلطة، لإثبات انتماء الجيش للشعب، وأن لا أحد أهم من الشعب.

المرحلة التالية معلومة، يجري تشكيل هيئة حكم انتقالي، سنتين في الغالب، يديرها العسكر، ويتم خلالها التجهيز لانتخابات عامة، على أن يتم تسليم الحكم للقوى المدنية، ويسلم الجيش الأمانة الثقيلة، ويتخلّص من هذه المرحلة ثقيلة الظل على قلبه، ويعانق أشواقه للعودة إلى الثكنات والابتعاد عن رجس السياسة التي لا يمكن لها، مهما علا شأنها، إغراء العسكر الذين يضعون حب الوطن والدفاع عنه في مرتبة قدس الأقداس. ولكن في هذه المرحلة الانتقالية اللعينة، يشتغل العسكر ليل نهار على معرفة أسباب هذه التحوّلات، والأفكار التي أنتجتها، والقوى التي شكّلت حوامل لها، والأدوات التي تم استخدامها والوسائل المتبعة، ونقاط القوّة التي يجب تحطيمها، ونقاط الضعف التي يجب الولوج منها لتغيير المشهد وصناعة سياق جديد يضمن، بعد حين، عودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل هذا الانحراف/ التحوّل.

هنا يلاحظ اتباع تكتيكاتٍ جرى ترحيلها من بلد إلى آخر: صناعة ثورة مضادّة بقيم وأفكار تحاول تسخيف التحوّلات، بل وتخوينها وتحميلها مسؤولية الخراب والعطالة واتهامها بمحاولة تدمير الجيش بوصفه أهم ركائز الوطنية وعناوينها في هذه البلدان، وشن الحملات الإعلامية على الثورة ورموزها (الإعلام في دول الثورات بقي أميناً للأنظمة القديمة)، ومحاولة إثبات أن هؤلاء مجرّد هواة في السياسة وحالمون ولا يستطيعون إدارة البلاد. ولتثبيت ذلك، تعمل الأجهزة الأمنية على إشاعة حالة من الفوضى وتركها تتفاعل، عمليات قتل وسرقة ونهب واغتصاب، ليقولوا للناس هذه الحرية التي تريدونها، ثم تأتي مرحلة القبض على النشطاء وتغييبهم في السجون. وفي هذه المرحلة تكون القوى الشعبية التي التفت حول الثورة قد تعبت وتفرّقت للبحث عن مصادر رزقها بعد تراجع أحوالها المعيشية. ليس مهماً أن تتسلّم القوى المدنية السلطة بعد ذلك، سيكون العسكر قد أنهوا هندسة الأوضاع اللاحقة، وفخّخوا المجال السياسي بألغام كثيرة، مثل إيجاد برلمان غير قابل للعمل بسبب التناقضات بين مكوناته، أو تشكيل قوّةٍ حزبيةٍ من بقايا النظام القديم، أو صناعة قوى قريبة من العسكر وتطالب بعودتهم إلى السلطة. وفي حالة عدم نجاح الترتيبات السابقة، أو ظهور عراقيل معطّلة، فخيار الانقلاب حاضر، كما في الحالة السودانية.

ولا داعي هنا للتجمّل حتى يرضى الخارج عن العسكر، فهذا الخارج الذي سيحرد، في البداية، سيضطر، تحت ضغط مصالحه، إلى التصالح مع هؤلاء الحكام، وربما يقدّم لهم مساعدات عسكرية وأمنية، ما دامت هذه القوى تضبط الشعوب المحكومة وتمنعها من الهجرة إلى ما وراء البحار.

يبدو أن أوان طلوع الشمس لم يحن بعد على الأرض العربية، فالقوى المدنية ضعيفة ومشتتة، وما زال العسكر، على الرغم من سطحيتهم، قادرون على امتطاء اللحظة التاريخية، ولن يقطع صيرورة سيطرتهم سوى فكر عربي جديد وأحزاب قوية وفاعلة، لا بد أنها أصبحت قريبة، فالشعوب العربية أيضاً درست نقاط القوّة والضعف، وباتت تعرف مزيدا من التكتيك والإستراتيجيا، ومؤكد أن تلك العذابات لن تذهب مجاناً.

(كاتب فلسطيني)

مصير المحاصصة الطائفية في العراق

فارس الخطاب

أول مرة، ومنذ عام 2005، مارس سنّة العراق، السياسة، بشكل ذكي وممنهج خلال اللعبة الانتخابية التي لطالما دخلوها مشتتين، وبعناوين مهلهلة لشخصياتٍ إما ترتبط بأحزاب إسلامية أو بعناوين قبلية لملمتها الكتل الشيعية الكبيرة لتدخلها مجال المحاصصة الطائفية، بما يعطي انطباعاً كاذباً لما تسمى الديمقراطية في العراق الجديد المنشأ على أنقاض عراق احُتل أميركياً وبريطانياً ثم إيرانياً عام 2003.

في المقابل، شهد البيت الشيعي، ممثلاً بالقوى والأحزاب الشيعية الكبرى، سواء من جاء عبر القطار الأميركي أو من فرضته إيران أمرا واقعا على المشهد الشيعي أولاً، ثم على المشهدين، السياسي والأمني، العراقيين لاحقاً، تراجعاً كبيراً ليس في خسارته الانتخابات العراقية (2021/10/10)، وإنما لجمهورهم الذي ظنوا أنهم أدوات بأيديهم، وأنهم مهما تظاهروا أو اعترضوا على سلوكهم وفسادهم، فإنهم، في النهاية، سيغلّبون نُصرة طائفتهم (الشيعية)، والاحتفاظ بمقاليد الأمور في العراق، كما عبر عن ذلك، وفي أكثر من مناسبة، زعيم ائتلاف دولة القانون، نوري المالكي، بمقولته المعروفة «ما ننطيها». بل هناك من يقول إن شيعة جنوب العراق الذين شاركوا في الانتخابات، على قلتهم، اختاروا شخصياتٍ سنيّة ليصوتوا لها، ليثبتوا لأنفسهم ولأبناء جلدتهم أولاً، أنهم فوق الطائفية المقيتة، ثم ليساهموا في إسقاط من عبث بهم وبالعراق، وجعله رهين سياسات إقليمية مدمّرة على المستويين، المنظور والبعيد، تحت شعارات طائفية أيضاً. البيت الشيعي، وبعد ظهور نتائج الانتخابات التي أبرزت الكتلة الصدرية فائزا أول فيها، وصعودا لافتا ومهما للكتلة السنّية العربية، مضافاً إليها تفوق الحزب الديمقراطي الكردستاني، وتسيده المشهد الإنتخابي في كردستان العراق، هذا البيت الذي اصطلح على تسميته «الإطار التنسيقي للقوى الشيعية»، وكان قادة الأحزاب والتكتلات والمليشيات الولائية يظنونه متيناً وحصيناً وقادراً على مسك الأمور وإدارة الملفات والأزمات، وجدوه، هذه المرّة، واهناً كبيت العنكبوت، سرعان ما وصل إلى حد التفكّك، مع تأكيد المفوضية العليا المستقلة للانتخابات، أن لا تغيّر في نتائج الانتخابات البرلمانية، وأن نتائج العد والفرز اليدوي للمحطّات المشكّك في نتائجها من هذه الأحزاب مطابقة مائة بالمائة لنتائج الانتخابات المعلنة سابقاً.

يمثل هذا التطور الكبير في مشهد المحاصصة الطائفية في العراق انهياراً لقوى فاسدة وأخرى دموية قتلت آلافا من العراقيين وغيبتهم من بابٍ الترهيب، قوى ظنت وأرسلت رسائل ظنّها هذا إلى من تربطهم بها صلات وثيقة (إيران) أنهم باتوا خياراً طبيعياً يفوز بشعارات طائفية أو خدمات آنية للناخبين أو بالتزوير، كما حصل في كل الانتخابات السابقة. ومثالا على هذه القوى، يبرز «تحالف الفتح»، بزعامة هادي العامري، الذي يمثل الرقم الأقوى إيرانياً في العراق، ويشرف، بشكل كامل، على تشكيلات الحشد الشعبي. كما يضم أيضاً تحالف «قوى الدولة» الذي يقوده عمار الحكيم وحيدر العبادي وائتلاف دولة القانون بزعامة نوري المالكي، إضافة إلى قوى ومجاميع تتفاوت في حجوم عديدها وقوة حضورها في الشارع.

فوز مقتدى الصدر بالانتخابات وعدم اكتراثه بالبيت الشيعي إطارا سياسيا طائفيا لشيعة العراق شكل ضربة قاصمة لهذا البيت وأفضى إلى تصدّعه. كما أن دخول سنّة العراق بقوة إلى مجلس النواب بصحبة التيار الصدري والمكوّن الكردي العراقي يمثل بداية مرحلة جديدة، قد لا تشكل ثورة ضد الطائفية والفساد بوقت قياسي، لكنها أثبتت للشعب العراقي أنه قادر على إجراء التغيير، وأن الرضوخ والسكون لما كان يملى عليهم، سواء من الساسة الفاسدين أو باستخدام الدين غطاء لتمرير قوائم وكتل معينة، كان من أسباب ما وصل إليه العراق من تردٍّ وتراجع على الصُعُد كافة.

> هل سيقبل العراقيون بجبر خواطر الفاشلين، ممن أذلهم وقتل أبناءهم وسرقهم؟

قد يكون هناك تواطؤ مقبل في التركيبة السياسية في العراق؛ كأن تعطى مناصب ومكاسب للقوى الشيعية الخاسرة في الانتخابات من باب الترضية والتهدئة لقوى بعينها، لكنها لن تكون كما كانت ما قبل هذه الانتخابات بالتأكيد. ومع هذا السيناريو، يبرز السؤال الأصعب: هل سيقبل العراقيون بجبر خواطر الفاشلين، ممن أذلهم وقتل أبناءهم وسرق ثرواتهم وحجب عنهم الخدمات والعيش الكريم 18 عاماً، وما زال يمارس معهم كل أشكال التهديد والترهيب، لضمان بقاء سطوته المسلحة في مناطق العراق كافة؟ أم سيكون العراق مع موعد جديد من الحراك الشعبي المدعوم، والداعم لقوى حققت شرعيتها من خلال الانتخابات أخيرا؟

(كاتب عراقي في لندن)

صُنع في سورية

سوسن جميل حسن

ألِفَ ناسٌ كثيرون رؤية أفراد في شوارع مدنهم، ولو كانوا قليلين، يمشون وليست لديهم أذرع، غالبيتهم من مواليد أوائل ستينيات القرن الماضي، كما أنهم شاهدوا فيما بعد على الشاشات مشاهد أكثر فظاعة، من أفراد بلا طرفين علويين ولا سفليين، إنما نتوءات مكانها، أو أطراف ممسوخة وقصيرة غير قادرة على القيام بوظيفتها، هذه الحالة تسمّى طبيًا المولود الفقمة، أو تفقّم الأطراف، وسببه، بنسبة عالية، تناول أمهات حوامل دواء التالوميد في أواخر خمسينيات القرن الماضي وستينياته، بعد أن قالت الشركة المصنّعة إنه لا يؤثر على الأجنّة وبإمكان الحامل استخدامه بأمان للسيطرة على التقيّؤ، ومُنع الدواء من الاستخدام إلى اليوم إلّا في بعض الحالات الخاصة كمرضى الجذام على سبيل المثال، تحت ضبط قوانين صارمة وتعهّدات من قبل المريض، كما أن دعاوى عديدة رفعت على الشركة، وربحها معظم أصحابها وعوّضت الشركة لهم. وهناك حالاتٌ أيضًا لا يكون سببها التالوميد، إنما طفرة جينية متنحّية تسبب نقصًا في بروتين معين يؤدي إلى ولادة أطفال يحملون هذه العلامات، يسمّى تناذر رباعي إميليا، وهو يظهر في حال اجتمع الجين الحامل الصفة المقهورة من الأب مع ما يماثله من الأم، ولهذا التناذر درجات مختلفة من حيث الأعراض وشدّة التشوهات، أبسطها غياب الأطراف من دون مشكلات أخرى.

لهذه المقدمة علاقة بالصورة التي ربحت جائزة «سيينا» لهذا العام (2021)، التقطها المصور التركي، محمد أصلان، في الريحانية بالقرب من سورية، لأب سوري مبتور أحد الطرفين السفليين، يستند إلى الطرف السليم ويسند عكازه الطبي إلى خصره، بينما يرفع عاليًا طفله المصاب بهذه المتلازمة، بينهما جسر إنساني صعب على أي صورة أو لغة أو أداة تعبيرية شرحه، طرفاه ضحكتان تغمران وجهين إنسانيين، وعيون تنظر في عمق بعضها بعضًا، أطلق على الصورة عنوان «مشقّة الحياة».

هل تحتاج هذه الصورة إلى شرح؟ وهل العنوان الذي أطلق عليها يصل إلى عمقها؟ لا يمكن أن تمرّ الصورة الفوتوغرافية، أي صورة، بلا معنى، فهي تشتغل وفق وحدةٍ تامةٍ من العناصر الخاصة، تقدّم نفسها بصورة كليّة متكاملة، فمجموع العناصر المشكلة أو المجتمعة في هذه الوحدة تفرض على المتلقي تصورَها بوصفها وحدة متكاملة لها نظامها المتجانس، وهذه الوحدة هي التي تنتج الصدمة لدى المتلقّي، وتحفّز عملية الاستقبال لديه، وتشحن، في الوقت نفسه، فعله التأويلي وإدراكه.. يقول رولان بارت: تكون الصورة الفوتوغرافية تمثيلًا للجسد/ الذات. الجسد بكل تواريخه، والكتابة اندثار للجسد وظهور ذات جماعية مؤدلجة، مجهولة.

هل كانت صورة الطفل إيلان، الملقى على بطنه جثة هامدة على الشاطئ، بعد أن قذفته الأمواج في طريق الجلجلة السورية، تحتاج شروحات وتأويلات، وشرحها كدالٍّ وربطها بمدلول أشبع أدلجة وتسويقًا وتثقيلًا بكلام وخطاباتٍ لم تؤثر بشيء سوى إضعاف الصدمة التي تحدثها الصورة الرهيبة، الصدمة الكبيرة التي ترجّ الوعي والضمير؟ هناك ما لا يُعدّ ولا يُحصى من الصور الفوتوغرافية عن أطفال سورية خلال أكثر من عشر سنوات من الحرب والقصف والعنف والتهجير والحصار والتجويع، في مخيمات اللجوء، في مسيرات الهروب الجماعي تحت المطر والثلج والبرد، في الأعاصير، في الفيضانات التي تُغرق الخيم والعواصف التي تخلَعها، في الأطراف المبتورة والأجساد الممزّقة تُنشل من تحت الأنقاض، في الأكفان الملفوفة لأجساد صغيرة، في وجوهٍ ذاهلةٍ وأخرى باكية وغيرها معفّرة بالتراب، وغيرها ضاحكة وسط الخراب والعدم، وجوه تحكي تاريخًا وأخرى تعجز الفلسفة عن فهمها، صور وصور وصور، والعالم لم يستطع أن يقدّم ما يحمي الطفولة.

لماذا لا تُترك الصور بدون تعليق أو شرح؟ يختلف التعبير اللغوي تمامًا عن التعبير الدلالي للصورة، وقد يضعف من زخمها ويسحب الأضواء عن أيقونيّتها لصالح اللغة، ما يُدخل في مبارزاتٍ وصراعات إيديولوجية ومشاحنات تُشعل ساحات أخرى من الصراع، تجعل من الصورة، عظيمة الشأن وبالغة الحمولة، تنزاح بالتدريج لتتجمّد في الظل وتتراخى العرى التي تربط مكوناتها وتجعل منها وحدة كليّة قادرة على إحداث الصدمة والشروخ في الوعي والضمير، فهل يمكن ترك الصورة تُقرأ بحريةٍ لا مشروطة، وتحميلها إيديولوجيا ما أو عقيدة ما أو شحنة عاطفية ما، في وقتٍ يمكن أن تقول وحدها بأدواتها المعنى كلّه؟

بالعودة إلى صورة الأب وابنه بلا أطراف، يكفي أن يكون الأب سوريًا أولًا، ومن خان شيخون ثانيًا، ومبتور الطرف السفلي ثالثًا، ولديه عكّاز طبي مسنود إلى خاصرته رابعًا، وبين يديه المرفوعتين عاليًا طفل، لا يمكن تحديد عمره بدقة من الصورة، لكنه يبدو قبل سن دخول المدرسة، بلا أطراف أربعة، ما عدا استطالات قصيرة مكان الطرفين العلويين، خامسًا، ثم هذا الدفق المتبادل من التعابير التي تكاد تغرق الناظر إليها بمعانٍ لا يمكن بلوغها، تغوص في لجّة الوجود الإشكالي الحارق، والأسرار المتبادلة بينهما، بل وحدها ضحكة الطفل تكفي لتجعل من الصورة محصّنة في وجه اللغة والشروحات جميعها، طفل أمامه عمر بحاله، أمامه حياة من حقّه بفطريةٍ تامة، كما هي من حق أي مخلوق، والحياة بالنسبة للأطفال كقوس قزح، مبهجة وواعدة ولا نهائية، فكيف يُعتدى عليها من الأقوياء والجبابرة؟ وبأي حقّ تُنتزع منهم؟ بعيدًا عن حالة الطفل في الصورة التي هي من أخطاء الطبيعة، الذي من حقّه العلاج وتأمين ما يساعده في حياة كريمة لو كان في بلاد أخرى، بلاد هدف حكوماتها الأول: الإنسان المواطن لديها، لكن هذا الطفل ذو الوجه الجميل الكامل البريء يضحك، لأنه لم يتعرّف بعد إلى الوجه الآخر للحياة، ما زال يتهجّاها، وما زال على عتبتها، لن يمر الكثير من الوقت حتى تبدأ الأسئلة الجبارة بمحاصرته من دون أن يفهم لماذا؟ لماذا هو ناقصٌ عن غيره؟ لماذا أبوه ناقص أيضًا؟ لماذا لا يستطيع الإمساك بالأشياء؟ لماذا لا يستطيع الذهاب إلى المدرسة؟ لماذا لا يستطيع اللعب كغيره؟ ستتحوّل الأسئلة إلى لماذا كبيرة تبتلع الكون وتبتلعه، من دون أن يلقى جوابًا، لكنه، وهو يكبر، سيمتلئ بالأسئلة الصعبة، ليأتيه الجواب بعد حين، الجواب المانع أي احتمالات أخرى، الجواب الحامل حقيقة صادمة: لأنه من بلاد تُدعى سورية، يُقتل أهلها وأطفالها ونساؤها وشيوخها، يُهجّرون ويحاصرون ويجوعون ويُسامون كل أنواع المهانة والإذلال في الداخل والخارج، بلاد لم تمزّق الحرب جزءًا من شعبها وتعرضهم الشاشات أشلاء تتطاير جرّاء القذائف فقط، بل مزقتها وصارت كيانًا مقسمًا وشعبًا مقسمًا ومجتمعات متنافرة متهالكة تتراجع في مسيرة التاريخ، تنفق أعمارها في سبيل سد الرمق ليس أكثر، كل هذا في صراع محموم أعمى على السلطة، أدواته الشعب.

> يختلف التعبير اللغوي عن التعبير الدلالي للصورة، وقد يضعف من زخمها ويسحب الأضواء عن أيقونيّتها لصالح اللغة

يكفي أن تُعرض هذه الصورة وغيرها الآلاف أمام عيون الشعوب وضمائرها في كل الأرض، بصمتٍ كما يليق بها، بلا كلمة ولا عنوان، مثلما سمّتها اللجنة بجملة قاصرة «مشقة الحياة». يكفي أن يُشار إلى بلد المنشأ تحتها: صنع في سورية. ولتصمت كل الأفواه عن الكلام، لتخرس الألسنة وتخرس اللغة، حتى لا يبقى سوى هذه الصورة بجلالها الحارق، بحمولتها من الأسرار التي تفوق العقل، لكنها يمكن أن تنفخ الحياة في الضمائر المغيّبة في سباتها المديد.

إدلب (عز الدين إدلبي/الأناضول)

(كاتبة سورية في برلين)

مواجهة إيران في لبنان

بشير البكر

مقاطعة المملكة العربية السعودية وبعض دول الخليج لبنان، بسبب وزير الإعلام جورج قرداحي، ليست هي الرد المناسب على حزب الله وإيران، لأن المتضرّر الوحيد منها هو الشعب اللبناني، بل سوف تحصد إيران ثمار هذا التصعيد ضد الدولة اللبنانية الضعيفة والمستباحة من التدخلات الأجنبية. وبات واضحا أنه كلما ابتعدت دول الخليج وغيرها عن لبنان نجح حزب الله بتحقيق الهدف الإيراني لعزل هذا البلد عن محيطه العربي. وبالتالي، ليس الحل بمقاطعة لبنان أو استقالة وزير وحتى الحكومة برمتها، بل بمواجهة إيران وغيرها من الأطراف الخارجية، التي تتدخل في شؤون لبنان وبقية البلدان العربية، من خلال موقف عربي يمثل الحدّ الأدنى من التضامنين، السياسي والاقتصادي، وفق سياساتٍ واستراتيجياتٍ تقوم على حماية الأمن القومي العربي، ومعالجة آثار غياب الدور العربي، الذي يتجلى بقوة في سورية، التي توجد على أرضها عدة قوى خارجية باستثناء العرب. وتؤكد القضية السورية كل يوم الحاجة الماسّة إلى موقف عربي موحد لمواجهة تدخلات إيران وغيرها، وهذا أمرٌ لا يمكن أن تنهض به أطراف شغلها الشاغل محاربة طموحات الشعوب العربية بالحرية والكرامة. وكي يقوم الموقف العربي على أسس صحيحة، فإنه يتطلب إصلاحات سياسية فعلية في بنية النظام العربي الراهن، والذي شاخ ولم يعد صالحا للعصر، وأول خطوةٍ على هذا الطريق هي إطلاق الحريات، ووقف النهج التدميري بافتعال الحروب العبثية بين الدول العربية.

هناك طرف محلي في لبنان هو حزب الله، يضع نفسه فوق الدولة، ويتّبع في قراره قوة إقليمية ذات أطماع غير محدودة في العالم العربي هي إيران. ومنذ عام 1992، حينما دخل الحياة السياسية والبرلمان والحكومة، تجاوز الحزب الدولة اللبنانية التي لم تتمكن من الحد من تنامي قوته العسكرية، وتسلّحه المتواصل الذي سوقه مقاومةً لمحاربة اسرائيل، ولكنه صار يقاتل منذ عشرة أعوام تحت راية إيران في سورية والعراق واليمن. وبذلك تجاوز أذى هذه الظاهره الداخل اللبناني إلى علاقات لبنان العربية والدولية. ولو كانت الدول العربية المؤثّرة جادّة في معالجة ملف حزب الله، لما وصل الموقف إلى ما هو عليه اليوم، حيث بات استمرارُه يهدّد بتقويض البلد، وما نراه أن المواقف المعلنة لبعض دول الخليج مثل الإمارات، من الوضع في لبنان، لا تتوافق مع السياسات التي تمارسها سواء في الإقليم أو خارجه، وهي تحتفظ بعلاقاتٍ تجاريةٍ مهمة مع إيران، وتلعب دورا فريدا من أجل تعويم نظام بشار الأسد حليف طهران في المنطقة الذي أنفقت في الحرب على بقائه ما يفوق قرابة مائة مليار دولار، وشاركت المليشيات المحسوبة عليها، من حزب الله والحشد الشعبي العراقي وزينبيون وفاطميون في حرب التهجير والإبادة ضد الشعب السوري.

واستطرادا، حتى لا يكون الموقف من حزب الله هبّة عابرة، تنتهي بتسوياتٍ مؤقتةٍ يذهب مفعولها بمجرّد أن تتراجع الأزمة، صار لزاما الذهاب بالمسألة حتى نهايتها، ووضعها في نصابها الفعلي، الذي لا يتلخص بتصريح وزير، بل بهيمنة المحور الإيراني على القرار في لبنان، الذي تحوّل إلى قاعدة متقدمة لإيران يحرسها جيش مدرب من مائة ألف مقاتل، كما سبق وأعلن الأمين لحزب الله، حسن نصر الله. وفي هذا الصدد، لا بد من تحديد موقف حيال الأطراف الداخلية اللبنانية التي أقامت مع هذا الحزب تحالفاتٍ، هدفها تبادل المصالح السياسية من أجل تقاسم السلطة والنفوذ، كما هو الحال بين حزب الله والتيار الوطني الحر، حزب رئيس الجمهورية ميشيل عون، الذي وصل إلى الرئاسة بفضل هذا الحلف الذي خرّب لبنان، على الرغم من أنه كان من ألد أعداء الحزب، قبل أن يعود من منفاه الباريسي ويتحالف معه، تحت المظلة السورية.

عبثية التصعيد بين الجزائر والمغرب

جمانة فرحات

يعود التوتر الجزائري المغربي مجدداً. يمكن قول الكثير حول كونه مسلسلاً مملاً ومتكرراً وعبثياً، لا يعود على أي من طرفيه بالجدوى، لكنه، مع ذلك، يتخذ منحى تصاعدياً منذ أشهر. ويبدو أن كلا من البلدين اختارا استراتيجيتهما للتعامل مع الآخر، أقله في السنوات الأخيرة. تتصدّر الجزائر، في كل مرة، حملة الاتهامات بحق المغرب، بغض النظر عن مدى صحتها. يظهر أن المسؤولين لا يخشون الصدام، الدبلوماسي أقله، عندما تستدعي الحاجة، بل على العكس يرون فيه ضرورة ملحّة. ولا تكاد تنتهي أو تخفت فصول أزمةٍ حتى تظهر أخرى. من الصحراء إلى قطع العلاقات الدبلوماسية في أغسطس/آب الماضي، ووقف إمدادات الغاز عبر المغرب، وعودة ملف المخدرات، والاتهامات للمغرب بالوقوف خلف الحرائق في الجزائر، ودعم «استقلال منطقة القبائل» الجزائرية، وصولاً، قبل يومين، إلى الاتهام الجديد للرباط بالتورط في قتل ثلاثة مواطنين جزائريين في قصفٍ استهدف شاحنتهم، واستحضار مصطلحات من قبيل «إرهاب الدولة» و«العقاب».

في المقابل، يبدو المغرب أقرب إلى الاكتفاء بسياسة التجاهل حيناً، و«الرد في حدّه الأدنى» حيناً آخر، إذ يصدر التعليق دائماً على لسان مصدر حكومي، وغالباً ما يتبنّى سياسة التقليل من الأزمة، وتأكيد الرغبة في عدم الانجرار إلى حربٍ مع الجارة الشرقية، والحفاظ على استقرار منطقة ملتهبة، وتعيش على وقع تحدّياتٍ أمنيةٍ وسياسيةٍ عدة. حتى أن سياسة «مدّ اليد»، أقله ظاهرياً، كانت واضحةً في خطاب العرش للعاهل المغربي، محمد السادس، في أغسطس/آب الماضي، والذي لم يخل من دعوة علنية إلى الرئيس الجزائري، عبد المجيد تبون، للعمل سوياً لتطوير العلاقات وتغليب منطق الحكمة وإعادة فتح الحدود البرية المغلقة بين البلدين منذ العام 1994.

بالنسبة إلى الرباط، فهي تعمل على قاعدة الأهم ثم الأقل أهمية، وبما يضمن مصالحها فقط. من وجهة نظرها، تراكم ما تعتبرها «انتصارات سياسية استراتيجية»، من دون أن تمانع في دفع ما يتوجب عليها من أثمان لذلك، على غرار نيلها اعترافاً أميركياً بسيادتها على الصحراء مقابل عودة العلاقات العلنية مع إسرائيل، وما تبع ذلك من عدم إظهار أي حماسة في الاعتراض على منح إسرائيل صفة عضو مراقب في الاتحاد الأفريقي، في الوقت الذي كانت تتصدّر فيه الجزائر المعركة لإلغاء العضوية.

يصعب تصوّر أي حل راهن لهذا الصراع بين المغرب والجزائر الممتد منذ عقود، والمثقل بإرث ما تركه الاستعمار من أزمة حدودية، وما أعقب ذلك من قائمة طويلة من القضايا العالقة السياسية والأمنية، من دون وجود رغبة متبادلة في تفكيك هذه الملفات، وإدارة الخلافات بعيداً عن أجواء التصعيد والتهديد. ويجد المسؤولون في الرباط والجزائر أنفسهم متحرّرين من أي ضغوط جرّاء غياب أصوات وازنة، شعبية وسياسية، في كلا البلدين، تدفع باتجاه تغيير جذري في العلاقات. وغالباً ما يكون الاصطفاف خلف موقف السلطات هو السائد، إلا في حالة نادرة وغير مؤثرة، أو يسود الصمت المطبق، بانتظار انتهاء كل عاصفة. حتى التعاون الاقتصادي الذي كان يراهن عليه بعضهم في الرباط والجزائر، ليكون رافعة أو على الأقل ضابط إيقاع للعلاقات، ثبت فشله.

وعلى الرغم من أنه، بحسابات التاريخ والجغرافيا والاقتصاد، فإن ما بين الجزائر والرباط من قواسم مشتركة أكثر بكثيرٍ من الخلافات، لكن توالي الأزمات وانعدام الثقة بين الطرفين يعزّز القطيعة بين البلدين، ويجعل من جميع الاحتمالات ما دون الحرب المباشرة واردة. ولن يكون مفاجئاً أن تظهر تجليات التوتر الحالي سريعاً في ملف الصحراء، العنوان الأبرز في المرحلة المقبلة، ما يجعل من مهمة المبعوث الأممي الجديد لقضية الصحراء، ستيفان دي ميستورا، أكثر تعقيداً، وفي حكم المجمدّة قبل أن تبدأ.

الفتح الإسلامي استعمار في زمن التراجعات

محمد سي بشير

كنّا، منذ زمن، نسمع عن قضية في العلم والنقاشات المعرفية تحمل مسمّى المراجعات، ولم نكن نعرف منها إلا أنها جدلية منطقية للتراكم العلمي، كلما تقدّم بنا الزمن، تتعرّض النظريات فيه للنقد، ثم يأتي من يبني عليها، لتقديم ما أضحى يعرف بالتجديد. ولكن هذا، قبل أن تصبح تلك المراجعات تراجعات، ونقدا ليس كالنقد، بل تغييرا للعقل ونبذا للماضي، بكل ما يحمل من نصاعةٍ بقيت لنا لنفخر بها في زمن الهزائم المتتالية والتراجع، بل التردّي المستمر، على كلّ المستويات والصُعد.

لا يمرّ علينا يوم من دون أن نسمع عن مؤسّسة، شخصية، أو مُدّع للعلم باحث عن شهرة وهو يرمي مرجعيات الأمّة، محاولا أن يصيب عقلها الجمعي في مقتل، حيث سمعنا، قبل فترة، عن قدس غير القدس التي نعرفها من أديب لا يعرف من الأدب إلا بعض كلمات يُقال إنّه سرقها من أديب آخر بسيط، ثم سمعنا عن وجوب الاعتذار عن الفتوحات الإسلامية من مدّع آخر للعلم، ينتمي لمؤسّسة عريقة في العالم الإسلامي، وصولا إلى وصف دار الأوقاف المصرية فتح القسطنطينية، قبل أشهر، احتلالا، منتظرين أن يُطلّ علينا، وقد فعل أو كاد، من يقول لنا إنّ فلسطين أرض لليهود فلماذا ننازعهم إيّاها، بعد أن وصموا كلّ مقاومة بالإرهاب، ووصفوا كلّ من صال وجال ضدّ المحتل، المستعمر أو المستوطن، بأنه جهادي/ إرهابي، نحتاج أن نطأطئ رؤوسنا، معتذرين، بسببه، أمام الأجانب، وأن نكون، يوما، شارلي، نسبة إلى من قتل، في فرنسا رسّامين كاريكاتوريين يعملون في مجلّةٍ فنية، تحمل الاسم ذاته. أو، يوما آخر، فلويد، نسبة إلى الرّجل الأسمر الذي قتله شرطي أبيض، في أميركا، بعد عملية خنق دامت قرابة تسع دقائق لتنتفض الولايات المتحدة ومدن العالم، بعدها، تنديدا بتجاوزات يقترفها رجال الشرطة على المستضعفين والمواطنين من الأقلّيات في أكثر من بلد.

نقول تسع دقائق، بالتّدقيق، لأنّ ثمّة من ركّز عليها وأقام لها التأبين احتراما لذكرى الرّجل الأسمر الذي ذهب ضحية العنصرية المقيتة في أميركا، وحُقّ له ذلك، وهو الضّحية. ولكن، وهنا المحك، من للفلسطينيين وللأمّة، كلّها، بعد أكثر من 70 عاما من سلب أرض الإسراء والمعراج وأولى القبلتين وثالث الحرمين؟ لماذا يغيب العالم عن جرائم تُقترف على أراضي الأمّة من يمنٍ كان، يوما ما، سعيدا وهو، اليوم، تعيسٌ، يُدكّ على أهله دكّا، أو من لليبيا عمر المختار التي اجتمع العالم على نصرة من يمثّل فيها صورة العسكري الديكتاتوري، ثمّ، بعد هزائم متتالية له، يرفع داعموه راية مبادرةٍ مضمونها إمّا كرسي الحكم أو التّقسيم؟ ولماذا تكون الدّيمقراطية حلالا والحرية كرامة لغيرنا، ثم عندما تصل إلينا تكون مشوّهة أو يتمّ الانقلاب عليها، كما تمّ في مصر الكنانة، وتصبح البطّة ليست بطّة، أي الانقلاب ربّما لا يكون انقلابا، في بلد العربان، وفق وصف عسكري أميركي ومتسابق سابق إلى البيت الأبيض، جون ماكين؟ أو في سورية والعراق التي قتل فيهما الملايين باسم نشر الدّيمقراطية أو مشاريع تهديم الدّولة مع نصرة للمحتلّ الدّاخلي والمؤيّد، بل المؤيّدين، من الخارج؟

تلك أسئلة، وغيرها كثير، ممّا يختلج في صدورنا، ونحن نشاهد صورا تفرح القلب لأنها، في النهاية، انتصار للإنسان، بالمفهوم الغربي، لحقوقه المسلوبة أو لطريقة الاعتداء عليها، أيا كانت، التي نراها، نحن، يوميا، دونما حسيب أو رقيب، بل بتأييد من ذلك الذي يخرج، اليوم، رافعا صوته ومندّدا بالغربي يقتل، لكن متناسيا، أيّما تناس، بأنّه من أسهم في قتل الملايين، دونما اكتراث، من أبناء أمّةٍ أخرى تدين بغير دين الغرب، تتحدّث بغير لغاته، وربّما، كانت، من غير لون بشرة الإنسان الغربي، لأننا جميعا نتذكّر أنّ تدمير العراق إنما جاء على أيدي رايس، وزيرة الخارجية السمراء والراحل كولن باول، حامل الصفة نفسها، الأسمر هو أيضا، وبمقاربة الكذب على شاشات العالم، في مجلس الأمن، في 2003، لإعلان الحرب، لأنّ دكتاتورا اسمه صدّام، سام شعبه كل صنوف العذاب، يمتلك أسلحة ذات دمار شامل ليصير الدمار شاملا لكل العراقيين، بما يناهز مليوني قتيل على مر 15 سنة من نشر للديمقراطية واستمتاع العراقيين بالكرامة، وأيّ كرامة.

العنصرية التي يشتكي منها الأميركيون من أصول أفريقية نعاني، نحن، منها كلّ يوم أضعافا مضاعفة، ليس بعيدا عن لحظات قتل جورج فلويد، كانت شرطة الاحتلال الصهيوني تقتل، في القدس، فلسطينيا من ذوي الاحتياجات الخاصّة، مصابا بالتّوحّد، لمجرّد الاشتباه بأنّه كان يحاول الهجوم على الجنود، وهو زعم ذهب ضحيته آلاف من الفلسطينيين، من دون أن يكون لهم ذكر على صفحات الجرائد، أو تنويه لقتلهم على شريط عواجل القنوات الإخبارية التي هاجت وماجت في أثناء الهجوم على مجلّة شارلي، في باريس، في 2015، أو تكون كذلك لجندي صهيوني يُقتل أو رهينة غربية تُختطف، وكأنّما هم بشر، ونحن لا بواكي لنا، وفي حال من اجتمعت الأمم عليه كما تجتمع اللئام على طبق مُلطّخ بالدّماء؟

طبعًا، نحن، هنا، لا نشجّع على الإرهاب، ولا نبرّر له، ولا لمقترفيه، ولكننا نطرح، مجرّد طرح، أسئلة تكاد تطبق على صدورنا، ونحن نرى هواننا على الأمم وقيمتنا في العالم، لأننا نقع في قلب قوس الأزمات، نسكن بلدانا هي مكمن الإرهاب ومواطن للتطرّف، كما نحتلّ الصّفوف الأخيرة لمؤشّرات حقوق الإنسان، الحرّية، الكرامة والدّيمقراطية؟ طبعا مؤشّرات، الغرب هو من يضع مقاييسها ويعتبرنا، اليوم، معتدلين، وغدا، ربّما، نصبح، وفق مصالحه، متطرّفين.. يوما يدعونا إلى الانتخابات والاحتكام لصوت صناديق الاقتراع، وعندما تقرّر الأصوات، وتُفرز من لا يرضون عليه، يصبح الصندوق نفسه سببا في تدمير بلد (الجزائر)، حصار شعب (غزّة) بل انقلابا وقتلا للشّرعية (مصر).. وهكذا دواليك... من دون أن ننسى التّبرير للثورات المضادّة، مصطلحا لا يوجد إلا في بلد العربان، نحاسب به من سوّلت له، يوما، رفع الصوت بشعار «الشّعب يريد إسقاط النّظام»، وربمّا أمثلة سورية، اليمن وليبيا تكفي وإلا نورد أمثلة أخرى على غرار مثال المملكة التي يسعى النّظام فيها إلى تقطيع من يريد الإصلاح، بالمنشار، أو مثال الإمارات التي نصّبت نفسها زعيمة للشرّ، مدبّرة للانقلابات وممولة للحروب. عالم هكذا يسير وبغرب يساند سياسيا، ويدعّم تسليحا بل وينافح ويدافع استراتيجيا عن هؤلاء جميعا.

> علاقة وثيقة بين مسارات هوان الأمّة وتكريسه في الواقع بالدّيكتاتورية، من ناحية، والتّمكين لمرجعيات وقيم غريبة عن واقع الأمة وتاريخها، من ناحية أخرى

> نقع في قلب قوس الأزمات، نسكن بلدانا هي مكمن الإرهاب ومواطن للتطرّف، كما نحتلّ الصّفوف الأخيرة لمؤشّرات حقوق الإنسان

قال أحدُهم، تهكّما، كلما رأيت ما يحدُث من مسارعة بعضهم إلى التطبيع، وما نراه من مسارعة إلى تغيير طبيعة المرجعيات، شكلها ومضمونها، كلما ندمت على أنني لم أحج، لأن الخوف هو أن تبرّر، يوما ما، عودة الأصنام إلى الكعبة، بحكم أن فتح مكة عمل غير نظامي أو إرهابي، بل لا يلائم قيم من نريد التطبيع معهم.

كيف يحدث هذا، ولتجسيد أيّ أفق في المعاش الثقافي/ المعرفي/ الحضاري للأمّة؟.. سؤال يظلّ يطرح، ولا جواب له إلا بعض المؤشّرات لقيم تتغير، وأخرى تحضر لتكون البديل عن مرجعياتٍ تشكّل كوابح أمام حاملي لواء التّطبيع/ التغيير المغشوش، لكنه المراد في المنظور القريب أو متوسط المدى؟ هناك مسلّمات للحفاظ على العروش وكراسي الرّئاسة بدأت في البروز في شكل مقايضة بين واقع يجب أن يزول، بمضمون المرجعيات المكرّسة، بقيم يتولّد عنها واقعا يجب أن يستلم زمام الأمور، بمضمون البديل، عن كلّ المرجعيات، ومن ذلك انطلق مسار التمكين لمشروع تجديد الخطاب الدّيني، ولمراجعة مضمون التّعليم بكلّ مستوياته بنزع قيم المعاداة لأعداء الأمّة، حتى لو كان ذلك آيات قرآنية أو أحاديث نبوية شريفة، فضلا على أن يكون ذلك أحداثا تاريخية أو جغرافية محدّدة معروفة.. على غرار الفتوحات الإسلامية التي تحدّث أحدهم عنها، أخيرا، بأنها تستدعي الاعتذار، أو ما ذكرناه من محاولة تزييف وقائع التّاريخ ووصم شخوصه بشر ما تمّ وصمهم به من المستشرقين، وكأننا على موعد مع استشراق جديد يولد عندنا و يدلّس/ يدنّس مرجعياتنا لتكون النّتيجة أنّه لا يهاجمنا تيّار وافد، بل من بني جلدتنا في مشهد يصنع الغربة الحقيقية عن قيم الأمة ومرجعياتها، تستوجب يقظة للهمة وإيقاظا لهممها، عاجلا وليس آجلا.

في الحقيقة، هناك علاقة وثيقة بين مسارات هوان الأمّة وتكريسه في الواقع بالدّيكتاتورية، من ناحية، والتّمكين لمرجعيات وقيم غريبة عن واقع الأمة وتاريخها، من ناحية أخرى، وهي العلاقة التي يجب أن تفكّك بمشاريع إعادة انبعاث الأمّة، بما يُتاح من موارد وأدوات قد يكون منطلقها القيام بجهد التفنيد لتلك المرجعيات الجديدة والقيم البديلة، وبالسّعي نحو رفع الغبن والهوان عن الأمة .. وتلك قصّة أخرى.

(كاتب وباحث جامعي جزائري)

بايدن... أسد بلا أنياب

وائل السواح

كانت فترة حكم الرئيس السابق، دونالد ترامب، كارثة للأميركيين والعالم، فقد خفّض الضرائب عن الأغنياء، وألغى بنودا في سياسة التأمين الصحي المعروفة بـ «أوباما كير»، ما أدّى إلى زيادة العبء على الأميركيين الفقراء، وكذب فيما يتعلّق بوباء كوفيد 19، ما زاد في أعداد الإصابات والوفيات، وحاول أن يعزل أميركا عن جيرانها والعالم، واستسلم للرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، الذي كان له عليه دالّة كبيرة، وانسحب من معاهدة باريس للمناخ، وروّج نظريات المؤامرة، وتغاضى عن العنصريين البيض، وغضّ الطرف عن جرائم فردية وجماعية، يندى لها الجبين في شتّى أصقاع الأرض، ومنع المسلمين من دخول بلاده، وأساء للمرأة والملونين، وحارب المثليين والمشرّدين والمستضعفين في الأرض. ولكن كان يتمتع بميزة واحدة: كان مسلياً.

خلفه، جو بايدن، يفتقد هذه الميزة. تغلّب على ترامب بفارق سبعة ملايين صوت، فحصد أكثر من 81 مليون صوت مقابل 74 مليون صوت لترامب. وبذلك حصل على أعلى عدد من الأصوات في تاريخ الانتخابات الأميركية قاطبة. وفاز حزبه الديمقراطي بأغلبية مجلسي الكونغرس: النواب والشيوخ، وكان كل شيء مهيأ لشهر عسل، يفترض أن يمتد سنتين على الأقل، حتى الانتخابات النصفية في نوفمبر/تشرين الثاني 2022. ومع ذلك، لم نرَ هذا الوهج الذي كان من المفترض أن يصحب رئاسة بايدن، لا في الولايات المتحدة ولا في العالم الواسع. في الداخل، جاء متحوّل دلتا ليعيد الوباء إلى المربع الأول، وشنّ المحافظون حربا لا هوادة فيها على سياسات بايدن حيال الوباء، رافضين التلقيح الإلزامي وارتداء الكمامات في المدارس والجامعات، مسيّسين بذلك مسألة يجب أن تكون صحية في الأساس، أودت حتى الآن بحياة أكثر من 740 ألف أميركي. وجاءت الضربة الثانية لسياسة بايدن في سقوط أفغانستان خلال أسابيع قليلة من انسحاب القوات الأميركية منها وعودة حركة طالبان للاستيلاء على مقدّرات الأمور في البلاد، ما يعني أن عشرين سنة من الحرب الأميركية هناك قد انتهت بفشل ذريع.

ثم أتى التضخم المتسارع وغير المسبوق والارتفاع الكبير للأسعار وفقدان بعض المواد في السوق الأميركية بسبب سلسلة التوريد، ليزيد من تعاسة الرئيس بايدن، ويقلل من تأييده بين الأميركيين. وهوت شعبية الرئيس في أحدث استطلاع لشبكة إن بي سي من 53% في شهر إبريل/نيسان إلى 42% فقط أواخر أكتوبر/تشرين الأول. ولم يستطع الرئيس بايدن توحيد صفوف حزبه الديمقراطي لتمرير موازنة خطّة البنية التحتية المادية (جسور وشوارع) والإنسانية (تعليم وصحة ورعاية أطفال ومسنين). ولا يزال اثنان من أعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيين يختطفان قرار الحزب والكونغرس، السيناتوران جو مانشين وكرستين سينما، اللذان يستمتعان بمقدرتهما على تعطيل المسار التشريعي. يخشى مانشين أن يفقد مقعده في الانتخابات المقبلة في ولايته (ويست فرجينيا) المحافظة، إن هو صوّت لصالح حزمة ليبرالية واضحة المعالم. أما سينما فلا أحد يعرف بالضبط لماذا تعارض الحزمة، فهي ببساطة لم تفصح عن ذلك.

باتت مقاومة الاثنين تغييرا كبيرا وحقيقيا عقبة كأداء في وجه سياسة الرئيس بايدن، الذي وعد بإنهاء الانقسام داخل حزبه قبل سفره إلى روما وغلاسكو لحضور قمتي العشرين والعالم للمناخ، ولكنه سافر قبل أن ينجز وعده. حدّدت رئيسة مجلس النواب، نانسي بيلوسي، موعدا نهائيا في 31 أكتوبر/تشرين الأول لمجلس النواب، لتمرير مشروع قانون كبير للإنفاق على البنية التحتية، بعد أسبوع من المفاوضات المتبقية، قبل أن يطوي النسيان خطة الإصلاح الشامل للسياسة الاجتماعية والبيئية للرئيس بايدن. ولكن الديمقراطيين التقدّميين في مجلس النواب رفضوا التصويت على مشاريع قوانين البنية التحتية، قبل التوصل إلى اتفاق في مجلس الشيوخ بشأن مشروع قانون منفصل، يتضمن إنفاقا ضخما على قضايا زيادة رعاية الأطفال، والمساعدة في الرسوم الدراسية الجامعية، والإجراءات الرئيسية بشأن تغير المناخ.

دولياً، تمّ استقبال الرئيس بايدن بترحاب حار، وتنفّس العالم الصعداء بعد رحيل سلفه الكاريكاتوري. ورحبت أوروبا وحلف شمال الأطلسي والاتحاد الأفريقي ومعظم دول آسيا بفوز بايدن، وبقراراته الأولية في العودة إلى اتفاقية باريس للمناخ، والتبرّع بمئات ملايين الجرعات من لقاح كوفيد للدول الفقيرة، وإعادة ملف حقوق الإنسان إلى أولويات الإدارة الجديدة، والرغبة في بدء محادثاتٍ مع إيران. دول قليلة لم تُبدِ سعادة تذكر: روسيا التي فقدت حظوتها لدى ترامب؛ والصين التي استشعرت أنها ستكون في مقدمة أولويات بايدن؛ والسعودية التي تعرف أن الرجل يعارض سلوكها في تصفية أعدائها وخصوصا جمال خاشقجي؛ وإسرائيل التي عاشت أيامها الذهبية في ظل ترامب الذي نقل سفارته إلى القدس المحتلة، واعترف بسيادة إسرائيل على الجولان المحتل، وغضّ الطرف عن استشراء المستوطنات كالسرطان في الأراضي الفلسطينية، والتي لا تحب كثيرا عودة بايدن إلى طرح حلّ الدولتين. ولكن الترحاب الحار بدأ يخفت، وقد راح العالم يدرك أن جو بايدن قد يكون مليئا بالنيات الحسنة، ولكنه رئيس بلا أنياب، ليطبق النيات على الأرض.

يشترك القادة الناجحون في عدة أمور. إنهم يبنون حياتهم المهنية العامة حول فكرة أساسية، مثل رؤية توماس جيفرسون للجمهورية الزراعية، أو إيمان فرانكلين روزفلت بحكومة وطنية قوية ورحيمة. يستخدمون الخطاب لحشد الجمهور وراءهم، حتى لا يكون هناك أي لبس أو خطأ فيما ستأتي به نتائج الانتخابات. وهم متسقون في متابعة أهدافهم، حتى لو كانت التفاصيل النهائية خاضعة للتفاوض. ولو نظرنا إلى الرؤساء الذين غيروا وجه الولايات المتحدة: جيفرسون، لينكولن، روزفلت، رونالد ريغان، لوجدنا أنهم يشتركون جميعا في الخصائص ذاتها. ليس بايدن مثل هؤلاء. كان في المشهد السياسي ما يقرب من 50 عامًا، ولا يمكن للمرء ببساطة أن يربط به مبدأ أساسيا واحدا. بدلاً من ذلك، يتنقل الرجل من مدّ إلى جزر ومن موقف إلى موقف، حسب سياق المرحلة. ولعل ذلك أن يكون أمرا مناسبا في مجلس الشيوخ، حين كان الرجل عضوا فيه، حيث كان قادرا على مدّ الجسور بين الحزبين، وبين المعتدلين والليبراليين في حزبه، ولكنه بالتأكيد أمرٌ مرفوض في سدّة السلطة التنفيذية.

> لم يستطع بايدن توحيد صفوف حزبه الديمقراطي لتمرير موازنة خطّة البنية التحتية

> الفجوة بين دوري السيناتور والرئيس سبب عدم فاعلية بايدن، لم يقم الرئيس بحملته على أساس هدف شامل

> بايدن ليس روزفلت بشجاعته، وليس كينيدي بحماسته، وليس ريغان بخبثه، وليس كلينتون بسحر شخصيته

الفجوة بين دوري السناتور والرئيس سبب عدم فاعلية بايدن. لم يقم الرئيس بحملته على أساس هدف شامل أو فكرة أساسية. بل قدّم نفسه بدلاً من ذلك أنه يمثّل عودة الاستقرار والحالة الطبيعية بعد أربع سنوات مضطربة من دونالد ترامب. في 1932، انتخب الأميركيون الديمقراطي فرانكلين روزفلت، لأنهم عرفوا أنه يؤمن بأن الحاجة إلى اتخاذ إجراءات طارئة للخروج من الركود العظيم أكبر من الألعاب السياسية. تماما كما عرفوا في عام 1980 أن الجمهوري ريغان يريد ضرائب أقل وميزانيات دفاع أكبر. أما بايدن فينتقل من الجناح المعتدل في حزبه (جو مانشين) إلى الجناح التقدّمي (بيرني ساندرز) كما ينتقل من الكنبة إلى الكرسي، من دون أن يرضي أيا منهما. ليس هذا السلوك قيادةً، ولا بدّ أن يكون لمثل هذا الالتفاف العسير تكاليفه. وينظر المستقلون إلى بايدن نظرة سلبية بشكل متزايد، ويزداد التمرّد في الحزب الديمقراطي قوة، فلا المعتدلون يريدون التنازل عن مواقفهم الأكثر محافظة، ولا الليبراليون راضون بالتنازل عن مواقفهم التقدّمية، ما سيجعل الحزب بأكمله يواجه مشكلة محتملة في انتخابات التجديد النصفي للعام المقبل.

في السياسة، الضعف يولّد الضعف: يعرف السياسيون الأذكياء متى تغرق السفينة وكيف يستطيعون التملّص منها. بايدن ذكي، ولكن تقدّمه في العمر ورغبته في أن يكون رجل تسوية بين الأفكار والتكتلات السياسية، إضافة إلى فجور الوباء وقضايا المناخ وأفغانستان، ذلك كله يكبّل يديه ويمنعه من استخدام ذكائه بما يخدم الأمة والعالم، ويخدمه شخصيا.

باختصار، جو بايدن ليس فرانكلين روزفلت بشجاعته، وليس كينيدي بحماسته وتوقّده، وليس ريغان بخبثه وتصميمه على إطلاق يد الاحتكارات، وليس كلينتون بسحر شخصيته ونفاذ بصيرته. إنه مجرّد رئيس ديمقراطي عجوز، خَلَف ثعلبا مراوغا، فصار أشبه ما يكون بأسدٍ بلا أنياب.

(كاتب سوري في واشنطن)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري**
■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads